الفصل الثانى

الرق فى الاسلام . الخديو واهتمامه بحلوان . نظارة مصطفى باشا فهمى تعيينى فى نظارة الخارجية . بين عباس ويوسف ضيا . بلوغ ولى العهد سن الرشد . متفرقات . وفاة المغفور له توفيق باشا . تحليل شخصية توفيق وسياسته

الرق فى الاسلام . عقدت العزم منذ عودتى من باريس على أن أرد بالفرنسية على المزاعم التى وردت فى محاضرة الكردينال لافيچرى عن الرق فى كنيسة سان سولبيس بباريس ولقيت فكرتى استحسانا من جميع من حدثتهم عنها وخصوصا الجناب الخديوى. فأخذت بعد رجوعى من رحلة الشلال فى الاستعداد لتنفيذ هذا العزم ومراجعة المصادر التى تتعلق بالموضوع . وفى أكتوبر سنة ١٨٩٠ ذهبت إلى قلم منع تجارة الرقيق وقابلت رئيسه شيفر بك وطلبت منه بيانا بالرقيق الذى أعتق إلى الآن فأعطانيه مزودا بمعلومات أخرى من قنصلية انجلترا والكتاب الأزرق وهو مجموعة الوثائق الرسمية التى عرضت على البرلمان الانجليزى فى هذا الموضوع ، ولفت نظرى إلى النقط المهمة فيه .

ولما أتممت الرسالة عرضتها على سمو الخديو إجابة لرغبته من قبل، فأبدى ملاحظات على بعض النقط فأصلحتها وعرضتها عليه برمتها مرة أخرى بحضور دومرتينو باشا فأعجب بها وهنأنى .

وحدث بعد ذلك أن لقيت فى الخامس من نوفمبر الدكتور اباته باشا رئيس الجمعية الجغرافية فطلب منى أن ألقى محاضرة ، فعرضت عليه موضوع الرق فى الاسلام، ومع أنه كان كاثوليكيا فانه وافق عليه . ولاغرو فقد كان الرجل حر التفكير يرحب بمثل هذه المباحث الحرة .

وألقيت الرسالة فى دار الجمعية الجغرافية على دفعتين، الأولى فى ٢٩ نوفمبر والثانية فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٠ . وحضر القاءها كثير من عظماء الأجانب والوطنيين أذكر منهم على ذو الفقار باشا والغازى مختار باشا وأعضاء صندوق الدين ويعقوب باشا

أرتين واسماعيل باشا الفلكى وونجت بك ولطيف بك سليم ومحمد بك شريف وحسن عاصم باشا وقاسم بك أمين وبعض القناصل الجنرالية وكثيرون غير هؤلاء من رجال القانون فى القضاءين الأهلى والمختلط كما حضرها كثير من القساوسة

وقد كتبت الصحف عن هذه المحاضرة وعن شعور الذين شهدوها . ونكتفى هنا بنقل ما كتبته الوقائع المصرية عنها بعد إلقاء الجزء الثانى منها فى عددها الصادر يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٠ . قالت : —

« وأقبل سعادة الدكتور اباته باشا فَفُوِّضَتْ اليه الرياسة . ثم سأل أعضاء الجمعية عما إذا كان عرض لأحدهم مناقشات أو ملاحظات عن الخطاب الذى ألقاه حضرة احمد افندى شفيق فى الجلسة السابقة . فنهض جناب الكونت زالوسكى (العضو النمساوى فى صندوق الدين) وقال انه يرى أن ماعزاه حضرة الخطيب فى عرض كلامه على تاريخ الرق إلى الديانة النصرانية لم يصادف الواقع ولم يصب المرمى، فانه جاء مباينا بالكلية لقواعدها الأساسية التى تأمر الناس بمعاملة بعضهم بعضاً معاملة الأخ لأخيه وتعرفهم بأنهم أخوة عند الله . فأجابه حضرة احمد افندى شفيق وقال : ان فى وسعه أن يعزز قوله من الأسفار التى نقل عنها(١) ثم استتبع كلامه من حيث أفضى اليه فى الجلسة السابقة فقال ماملخصه :

« ان الدين الاسلامى الحنيف لايبيح فى أى حال من الأحوال معاملة أحد من الناس معاملة الرق إذا كان أبواه مسلمين حرين ، ولا يكون الاسترقاق الا فى الحرب . ومع ذلك فهو مقيد بشروط وروابط معلومة منها أن يتم على وجهه المقرر له ، ومنها أن يكون مع أقوام لايؤمنون بالله ورسوله على أنهم إذا رضوا بالاسلام ديناً أو دفعوا الجزية تخلصوا من ربقة العبودية »

ثم أيد الخطيب قوله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار التاريخية ، وبعد ذلك انتقل إلى بيان معاملة الرقيق فقال: — ان الشريعة الاسلامية تأمر تابعيها بالتزام الرفق والرأفة مع المملوكين . واستشهد على ذلك بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) وكانت الفقرة التى اعترض عليها الكونت زالوسكى هكذا : « اما الديانة المسيحية فلم يثبت أن المسيح عليه السلام منع الرق قولا او عملا، ولم يأت فى الانجيل مايشير إلى ذلك . وعلى هذا المنهج سار الحواريون ورؤساء الملة المسيحية . بل ان القديس توما أثبت ان الطبيعة خصصت بعضاً من هذا النوع لأن يكون رقيقاً وبالغ القس بوفييه والقس ليون في ذلك حتى اعتبرا النخاسة تجارة مباحة »

فقد قال : (اتقوا الله فى الضعيفين المرأة والمملوك) وأمر (ص) بأن يلبس المملوك من لباس سيده ويتغذى من غذائه ولا يحمل فوق طاقته وإذا كان سيده مقترا فى معيشته فلا يسرى عليه ذلك

ثم ختم حضرة احمد افندى شفيق مقاله بايضاح أمر الزواج فأبان أن الكتاب الحكيم والأحاديث النبوية تبيح للسيد أن يتزوج مملوكته إذا اعتقها وأمهرها . ثم قال أين هذا من شريعة (الفيزيجوتيين) التى كانت تعاقب المرأة التى تعقد على مملوكها ولو كان معتوقاً بالحرق معاً . فصفق له الحاضرون طويلا وأعجبوا بمقاله كثيراً »

ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى أعددت الرسالة للطبع وظهرت باللغة الفرنسية فلقيت رواجا كبيراً فى مصر واوربا ، وتلقيت عنها كثيراً من التقديرات والتهانى، وهذه نبذ من بعض الرسائل الخاصة التى تلقيتها فى هذا الشأن :ـــ

بعث إلى الأستاذ فونك برنتانو برسالة جاء بها :

« طالعت ردك على الكردينال لافيجرى عن الرق فى الاسلام وانى لأهنيك من صميم قلبى على موضوعك هذا وعلى الأسلوب الذى نهجته لاخراجه . على أن بحثاً كهذا تكون له قيمته العلمية الكبيرة إذا استعان كاتبه بالشرائع والأحكام القانونية وعالج موضوعه فى ضوء الاشعة المنبعثة منها كما فعلتم أنتم فى رسالتكم هذه »

وكتب إلى مسيو بوكار أحد مديرى شركة قناة السويس يقول :ـــ

« انك فى مؤلفك هذا عن الرق تثبت بحذق ولباقة هذه الحقيقة، وهى أن الرق عند جميع الشعوب الشرقية كانت له صبغة من الرفق لم تكن له فى اليونان ولا فى رومه

أما فيما يتعلق باحتجاجك على نظرية الكردينال لافيجرى فأرى أنك على صواب فيه وأن من حقك أن تدافع عن دينك وملكك . وانى أعدك بأن أنشر خلاصة وافية لمؤلفك النفيس فى الصحف الفرنسية

وأرسل إلى بعد ذلك قصاصات من هذه الجرائد فبعثت اليه بكتاب شكر

وجاءنى فى رسالة من رستم باشا سفير تركيا فى لندن مايأتى :ـــ

« ان مؤلفكم « الرق فى الاسلام » يقصد به التقرير بأن شرائع الاسلام ومبادئه تقر مطاردة الرقيق كما هو واقع ببعض أنحاء افريقية الداخلية . ان عملا كهذا لايمكن إلا أن يكون عظيم الفائدة فأنا أشكر لكم تكرمكم بالنسخة التى أهديتموها الىّ منه وسيكون من اكبر بواعث الارتياح لى أن أوزع النسخ الاخرى على بعض المؤلفين وغيرهم من الذين يلوح لى أنهم أهل لإذاعة موضوعه على الجمهور الانجليزى

وأرسل إلىّ مسيو مزمر رقعة جاء فيها :ـــ

« أهنئكم . إنكم على حق فى ردكم على معارضكم . ولو كنتم جعلتم ردكم هكذا ، رد مسلم على الكردينال لافيچرى ، لكان لهذا الرد صدى عظيم »

وأرسل الى المسيو رينو الاستاذ فى كلية الحقوق بباريس وأستاذى فى مدرسة العلوم السياسية بطاقة أثنى فيها على ما جاء بالنسخة المرسلة اليه ووعد بالكتابة عنها فى إحدى المجلات

وكتب الى الاستاذ أرتور رون، من الكتاب المعروفين الذين زاروا مصر سابقاً وقد تعرفت به فى باريس، رسالة جاء فيها :ـــ

« على أنى لايسعنى إلا أن أشهد بأن العمل الذى قمتم به ، وشعاركم فيه الصدق والاخلاص ، جاء فى نتائجه مطابقاً لكل ما كنت أسمعه أو ألاحظه بنفسى. وكثيراً ما كنت أسمع من أفراد أقاموا فى مصر منذ أربعين سنة أن الرق الأسود إنما هو نوع من الاستخدام بتعاقد عرفى لمدى الحياة يستطاع نقضه بسهولة وبطريقة لا تتنافى مع مبادىء الإنسانية، وأن الرق الأبيض إنما هو نوع من التبنى فى الغالب . وكثيراً ما يؤدى إلى الثروة وإحراز مراتب الشرف ، إلى أن قال :ـــ

« وعلى ذلك فالمماليك هم الذين ملأوا مدينة القاهرة بالأبنية الشامخة والقصور العجيبة التى اتجهت اليوم همة التنظيم العصرى عندكم إلى هدم بعضها وترك البعض الآخر ينهار أو يرمم ترميما سطحياً . وبذلك انتزع من مدينتكم ذلك الطابع الخيالى البديع الذى رسمت به هذه المبانى وكان مفخرة لها، وهو الطابع الذى أتيح لى أن أراه بنفسى سليما منذ ٢٦ سنة »

وكتب إلىّ الكولونيل شيفر :ـــ

« أنا فى غنى عن القول . أن كل مايتعلق بمسألة الرق له عندى أهمية عظيمة جدا ولا سيما متى كان الأمر مبسوطا بصراحة ونزاهة كما هى الحال فى مؤلفكم النفيس »

وفى رسالة من سعادة قره تيودورى افندى ممثل تركيا فى بروكسل :ـــ

« بناء على رغبتكم قد وزعت النسخ التى أرسلتموها إلىّ من كتابكم ماعدا واحدة منها احتفظت بها لنفسى . وإنه لمن المؤكد أنه لن يدهشكم أن تعلموا أن الذين يهتمون بهذه المسألة الخطيرة ـــ التى كثيرا ما أثارت الجدل العنيف ـــ هؤلاء قد قدروا مؤلفكم

العلمى النفيس أكبر تقدير . أما أنا فقد طالعته وأنعمت النظر فيه ولا يسعنى إلا أن أهنئكم به بكل إخلاص ومن صميم القلب. فقد كان من حسن حظى أن وجدت فى كتابكم هذا مايؤيد تمام التأييد النظريات والمبادىء التى جاهدت أنا فى سبيلها سواء كان ذلك أثناء المناظرة التى جرت شخصيا مع الكردينال لافيجرى أو فى أثناء مؤتمر بروكسل الأخير، علاوة على ماهنالك من البراهين القاطعة التى تضمنها مؤلفكم وكانت معارفى قاصرة دونها.وهى براهين تستند إلى تعاليم الاسلام وتقضى قضاء مبرما على جميع الحملات غير المشروعة المنافية للتعاليم المسيحية التى لم يتورع جماعة من رجال الكنيسة وأشياعهم عن توجيهها إلى ديانة هم يجهلون مبادئها وتعاليمها »

إلى أن قال — : « وليس لى ماأقوله فيما يتعلق بما جاء فى نشرة الجمعية الجغرافية وفى رسالتكم الى الاجبسيان غازيت (١) ولكن اليك بهذه المناسبة ما حدث لى شخصيا — فقد قدمت حكومة البرتغال مذكرة عن الغاء الرقيق والنخاسة فى مستعمراتها كان مما جاء فيها : — « انه لايزال فى مصر على رغم وجود الاحتلال الانجليزى سوق للنخاسة يلجأ اليها الخديو نفسه وكبراء البلاد وأعيانها لاقتناء الرجال الصالحين للعمل فى الحقول والخصيان الذين يحتاجون اليهم فى خدمة الحريم .)

وقد انبريت للرد على ذلك وبفضل الاحتجاج الذى قدمته وكان له وقعه وشأنه عند الحاضرين أزيلت هذه الفقرة وأمثالها من مجموعة أعمال المؤتمر وهو واجب أديته فخورا به وأكون سعيدا لو بسط الأمر عند سنوح الفرصة بين يدى الخديو »

أما الكردينال لاقيچرى فانه لم يكتب لى شيئاً بعد أن أرسلت له نسختين من مؤلفى (٢)

---

(١) جاء فى مجموعة الجمعية الجغرافية ضمن الكلام عن المحاضرة اعتراض من الكونت زالوسكى الروسى ورددى عليه وكذلك نشرت جريدة الأجبسيان غازيت نقداً على ما جاء في المحاضرة وقد فندت هذا النقد .

(٢) وقد أعلنت فى الصحف أشكر كل من يزودنى بمعلومات أوفى بما أتيت به في شرح موضوع الرق فى الاسلام حيث قد عزمت على طبع الترجمة العربية بعد اضافتى ماعساه يصلنى من المعلومات اتماما للفائدة وكان لى أمل بأن حضرات العلماء لايبخلون على بآرائهم الثمينة ولكن بالأسف المزيد لم يصلنى شىء منهم أو من غيرهم .

وفوق ذلك أرسلت بمؤلفى الى جميع المكاتب فى البلاد الأجنبية للاطلاع عليه والالمام بأوامر الديانة الاسلامية فى هذا الصدد ولدحض افتراءات الجاهلين بها

وقد ترجم هـذا المؤلف الى العربية بمعرفة صديق الأستاذ احمد زكى باشا شيخ العروبة وكذلك الى التركية بمعرفة صاحب جريدة اقدام التركية احمد جودت بك

الخديو واهتمامه بحلوان . فى يوم ١٠ يناير افتتح تياترو حلوان الجديد الذى بنته شركة حديد حلوان (سوارس) وقد شهد الخديو وحرمه المصون حفلة الافتتاح تشجيعا وحثا للشعب على الاهتمام بهذه الناحية من الفن . فكان لذلك أثر عظيم فى مبادرة رهط كبير من الأعيـان والكبراء للاشتراك فى الحفلة فشاهدت الألعـاب . وكان من أحسن ما قدم من ضروب اللهو أن أقيم عمود ربط فى أعلاه منـديل به نقود وطلى العمود بالدهن وجعل المنديل وما فيه مكافأة لمن يصعد اليه . وبعـــد محاولات عديدة تمكن واحد من أخذ المنديل وذلك بواسطة عقد مخصوصة على لحبال صعد عليها . ثم سحبت أيضاً أوراق اليانصيب .

وكان سمو الخديو يهتم بمدينة حلوان ويؤثر السكنى فيها وكثيراً ما كان يحدث رجال معيته فى شأن تقدمها . وهو الذى أمر بتخطيط شوارع حلوان وتقسيمها الى أجزاء وزعها على كبار القوم فى مصر وموظفى المعية، ورغم وجودى فى ذاك الوقت فى باريس فقـد حفظ لى قطعة لم يتيسر لى الانتفاع بها. ولقد قدم محمود فهمى باشا رئيس أقلام عربى المعية مشروعاً بتشكيل مجلس بلدي لحلوان فوافق عليـه الخديو وصدر بالفعل أمر عال بتشكيله فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩١ .

وفى مساء اليوم التالى ذهب سموه الى تياترو حلوان ومعه الشيخ على الليثى وشوقى باشا ويوسف شهدى باشا، وعرضت ألعاب شائقة منها أن طفلة سنها ثمانى سنوات تقريباً ظهرت فى ميدان النادى فقامت بكثير من الألعاب على السلك حتى رأيت سمو الخديو يصفق لها استحساناً . ثم أحضر رئيس الجوق حقيبة وفتحها فخرجت منها طفلة تبلغ من العمر نحو خمس سنوات وأخذت تلعب مباشرة ألعابا بهلوانية أدهشت الحاضرين . ثم عرضت أيضاً ألعاب خيال الظل .

نظارة مصطفى باشا فهمى . فى الثانى عشر من مايو سنة ١٨٩١ رفع رياض باشا استقالته الى سمو الخديو شفويا ثم كتابيا وبناها على أسباب صحية، ولـكن الواقع كان غير ذلك فقد علمت من صديق محمود بك شكرى أن السبب الحقيق هو أن كتشنر باشا أصدر أمرا لرؤساء الأقلام فى الداخلية بأن يعرضا عليه جميع الأوراق أولا ثم

يرى هو ما يجب عرضه منها على رياض باشا وما لا يجب . وكذا وضع كتشنر وسكوت تقريرهما بالاتفاق معاً ورفعاه للخديو مباشرة دون علم الناظر المختص فاستاء رياض باشا لذلك أشد الاستياء واعتبر هذا التصرف ماساً بكرامته وكرامة البلاد . وقد قبلت الاستقالة وأرسل سمو الخديو لعبد الرحمن رشدى باشا وعرض عليه تأليف النظارة فاعتذر، فعرضها على مصطفى باشا فهمى فقبل وشكلت النظارة وكان ناظر الخارجية فيها تيجران باشا .

تعييني بنظارة الخارجية . عينت يوم ١٩ منه سكرتيرا خاصا خلفاً لعدلى بك يكن (المغفور له عدلى باشا) الذى رقى الى وظيفة أخرى . وقد كتب دومرتينو باشا حينما علم بتعييني الى ناظر الخارجية يوصيه بى ويقول فى رسالته :

« انى آسف لأن شفيق لم يستمر فى المعية لأن تربيته عالية وطبيعته جدية فضلا عن أنه كتوم للسر يمكن الاعتماد عليه . وإذا كان الخديو يحرم من خدماته فذلك لكى يفتح له طريق التقدم السريع »

ولما توجهت الى نظارة الخارجية استقبلنى تيجران باشا استقبالا حسنا . كذا لقيت من إخوانى الموظفين ترحيبا بى ومن محمد بك شريف السكرتير العام عطفا علىّ

وكتبت بهذه المناسبة الى دومرتينو باشا، وكان يومئذ بالاسكندرية، أحدثه عن تعييني بنظارة الخارجية وارتياحى لناظرها وحسن معاملته، وان كان العمل رغم ذلك يرهقنى مؤقتا لعدم خبرتى به كما أشرت مع الشكر والعرفان إلى العطف السامى الذى يشملنى به الخديو منذ حداثتى .

تيجران باشا

وأفهمته أن مستشار الحقانية يرغب فى توظيفى بهذه النظارة (١) . فرد علىّ يقول:

---

(١) وكان صدر الأمر العالى فى ٥ فبراير سنة ١٨٩١ بتعيين المستر جوستيس سكوت مستشاراً قضائياً لنظارة الحقانيه .

« لا تفقد شجاعتك ازاء الصعاب فكل جديد صعب .. وأنت ذو ذكاء وسيسهل عليك كل شيء فى القريب العاجل . ثم ان تعيينك بالخارجية خير من توظفك بالحقانية لان أقصى ما يمكن أن تبلغه فى الحقانية بعد أمد طويل أن تصبح قاضياً بمرتب لا يتجاوز الستين جنيها . أما فى الخارجية فالمجال متسع للرقى واظهار المواهب ، وفى الحقانية يعلم الله وحده متى تظهر المواهب وهذا هو رأيى ورأى سمو الخديو ورأى محمود فهمى باشا وأن الجناب الخديوى لا يعارض مطلقاً فى تعيينك بالقضاء ولكنى أنصح لك بالبقاء فى الخارجية » .

بين عباس ويوسف ضيا . فى العاشر من يونيه سنة ١٨٩١ أقيمت الحفلة الراقصة السنوية فى سراى رأس التين وكانت هذه الحفله تقام مرتين ، فى الشتاء بقصر عابدين وفى الصيف برأس التين ، وذلك بالنظام الذى وصفته فيما تقدم . وكانت اقامتها عندئذ عقب عودة البرنس عباس ولى العهد من أوربا . وانتدبت لاستقبال المدعوين مع رجال التشريفات . ولما فتح المقصف طاف به البرنس عباس وكان قد دعانى لمرافقته فرأى بعض ضباط المعية المصريين ومنهم يوسف ضيا «باشا» قد انتحوا من المقصف ناحية وأكبوا على الشراب والأكل والضحك . فلاحظ عليهم أن الواجب يطالبهم بترك الأمكنة للمدعوين لأنهم هم من أهل البيت فرد عليه يوسف ضيا بقوله : « لما تبقى خديو تبقى تأمر وتنهى ! » على انه لم تمض غير بضعة أشهر تولى بعدها الحكم عباس

بلوغ ولى العهد سن الرشد — فى الرابع عشر من يوليه احتفلت البلاد احتفالا شائقا ببلوغ ولى العهد عباس تمام الثامنة عشر حسب التاريخ الهجرى وأهدى الامبراطور فرنسوا جوزيف بهذه المناسبة إلى البرنس وشاح فرنسوا جوزيف وقدمه اليه قنصل عام النمسا فى استقبال فخم رسمى أقيم بسراى رأس التين وكذا أنعم الخديو على ولى عهده برتبة الفريق وبالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى . وأقيمت بهذه المناسبة مآدب عديدة ووزعت الأطعمة والصدقات .

متفرقات .

الموظفون المدينون : فى ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩ قرر مجلس النظار عدم تعيين موظف بالحكومة تكون عليه ديون واشترط أن يستعلم عن ذلك قبل التعيين .

جمعية القوانين المقارنة : فى يوم ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٩. تسلمت رسالة من جمعية القوانين المقارنة بباريس تنبئني بتعييني عضوا فيها وترجوني عند قبولى ان أختار قسما من أقسامها الثلاثة ، وهى قسم اللغات الشمالية وقسم اللغة الفرنسية وقسم اللغات الشرقية . وان هذا التعيين قد صدر بناء على طلب الأستاذ رينو ولما علم سمو الخديو بذلك هنأنى بهذه الثقة .

التمثيل العربي بمصر: وفى ٧ منه شاهدت فى تياترو أبو خليل القبانى رواية أنيس الجليس، ولو أن التمثيل لم يكن متقنا ولم تكن فى ذلك الوقت جوقة موسيقية تتمشى مع الأغانى كما هو الحال الآن إلا أن الرواية كانت فيها مواعظ جسنة

تشكيل المجلس البلدى بالاسكندرية : صدر الأمر العالى فى ٥ ينساير سنة ١٨٩٠ بتشكيل هذا المجلس من ستة أعضاء من كبار الموظفين وهم المحافظ والنائب العمومى بمحكمة الاستئناف المختلطة ومدير عموم الجمارك ورئيس نيابة المحكمة الأهلية ومفتش الصحة ومفتش رى القسم الثالث وستة أعضاء أخر تنتخبهم الحكومة وستة ينتخبهم الاهالي وثلاثة ينتخبهم تجار الصادرات وثلاثة ينتخبهم تجار الواردات واثنين من أصحاب الأملاك .

رجوع ابراهيم ذوالفقار من فرنسا : فى الثالث من اكتوبر سنة ١٨٩٠ رجع ابراهيم بك ذو الفقار إلى القاهرة بعد أن أتم دراسته فى فرنسا فاستقبلته مع والده ذو الفقار باشا والأصدقاء .

تقاليد حفلة افتتاح المولد النبوى : وفى الثالث عشر منه كان افتتاح المولد النبوى وكنت بين المدعوين فذهبت إلى سراى الخرنفش فى السـاعة العاشرة صباحا وهناك رأيت رجال الطرق يفدون إلى بهو السراى فيقرءون الفاتحة امام الشيخ الخضرى فرقة بعد الاخرى . ثم دخلت الديوان فوجدت كثيرا من العلماء والاعيان وقد اصطفوا وقوفا ثم تقدم السيد عبد الباقى البكرى شيخ مشايخ الطرق وأعطى الشيخ يسن شيخ الطرق الرفاعية ورقة كبيرة سماها الفرمان (مع انها صادرة من محافظة مصر) وسلمها هذا لشيخ آخر قرأها علانية امام الجمهور ومفادها افتتاح المولد .

وقد تناولنا طعام الغداء وانصرفنا حوالى الساعة الثانية .

انتداب فى الخاصة : وفى اليوم الثامن عشر أرسل لى شوقى باشا ناظر الخاصة الخديوية بعض أوراق للترجمة فذهبت إليه بعد الظهر، وهناك أخبرنى أن هذا التـكليف من قبل الخديو وأن سموه أمر بحضورى غدا إلى الديوان « الخاصة » لأكون معه لأحضر

انعقاد لجنة المحامين المكونة من مسيو بييترى المستشار الخديوى ومسيو كارتون دوفيلار المحامى للمناقشة فى أوراق تتعلق بتركة المرحومة توحيدة هانم افندى زوج داود باشا يكن . وفى الغد توجهت إلى الديوان وحضرت الجمعية وكنت أقوم بمهمة الترجمة بين المحامين وشوقى باشا .

استطلاع الخديو لأعمال المحاكم الأهلية : فى أواسط هذا الشهر قام الخديو بالتجوال فى بعض أنحاء الوجه البحرى لزيارة المحاكم الأهلية والوقوف على سير العمل فيها . وعند عودته إلى القاهرة فى يوم ٢٣ منه ختم هذه المهمة بزيارة محكمة الاستئناف الابتدائية وأقلام النيابة العمومية والكتاب وزينت دار الاستئناف لهذه المناسبة زينة فخمة .

وفاة شفيق بك منصور : بينما كنت فى الاوبرا فى يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٠ بلغنى نعى شفيق بك منصور أحد رجال القضاء الممتازين ونجل منصور باشا زوج بنت الخديو اسماعيل، فغادرت المكان متكدراً وَشُيِّعَتْ الجنازة فى اليوم التالى باحتفال مهيب مشى فيه رياض باشا وعلى باشا مبارك وثابت باشا وعبد الرحمن رشدى باشا وكثير من العظماء ورجال الحكومة والاعيان وأعضاء محكمة الاستئناف، وعلى الجميع أمارات الحزن العميق

رحلة الخديو فى الوجه القبلى : اعتزم سمو الخديو توفيق أن يقوم برحلة جديدة فى الوجه القبلى وأن يتفقد بنفسه شئون البلاد للمرة الثانية بعد الاحتلال . وبدأت هذه الرحلة فى يوم ٤ يناير سنة ١٨٩١ حيث غادر الخديو محطة العاصمة فى صباح هذا اليوم إلى إلى اسيوط ومنها الى سوهاج فالبلينا وادفو وارمنت واسوان وكوروسكو بطريق النيل . وقوبل أثناء الرحلة فى جميع البلاد التى مررنا بها بالحفاوة والمراسيم المعتادة ثم عدنا إلى العاصمة فى يوم ٨ فبراير

• زفة الفار : فى يوم ٧ يناير شاهدت أحد المناظر الشعبية المسماة « زفة الفار » وهى عبارة عن احتفال اعتاد العامة إقامته فيجتمع فيه الرجال والنساء والاولاد بكثرة ويهللون ويصيحون ويأتون ضروباً كثيرة من المجون والخلاعة ويخترقون الشوارع حيناً على هذا النحو المبتذل(١)

حريق سراى عابدين : فى يوم ٢٣ يوليو شبت النار فى سراى عابدين وظهرت أولا فى الجناح الذى كانت تشغله الخاصة فلم يمض ساعتان حتى دمرته تدميراً ثم اتصل اللهب

(١) وقد ابطلت هذه العادة .

بقاعة المائدة فانصرفت الهمة إلى فصلها عن بقية السراى بفتح هوة خلاء بينها وبين بقية الأجنحة ، وتم ذلك بواسطة الديناميت وضرب الفؤوس والمعاول . وكان رجال جيش الاحتلال جميعاً بين جنود وضباط وموظفو الحكومة وقواد الجيش المصرى ورجاله يساعدون فى مكافحة النيران

وقد بلغنى نبأ الحريق وأنا فى نظارة الخارجية فأسرعت إلى السراى وكان أول ماخفت عليه المكتبة الخصوصية التى كانت فى السلاملك ، مكتبة الخديو ، فاستحضرت فى الحال بعض الخدم ونقلت كل ما فى المكتبة من خرائط وكتب وغيرها إلى مكان أمين بعيد عن الحريق وساعدنى فى ذلك جيّاردو بك الموظف بنظارة الحقانية . وبلغ ذلك مسامع البرنس عباس حين حضوره فى اليوم التالى للحريق لزيارة العاصمة ورؤية ماحل بالسراى . فلما عاد إلى الاسكندرية أبلغ والده وعلى أثر ذلك وصلتنى برقية من البرنس عباس يبلغنى فيها شكر سمو الخديو ويأمرنى أن أبلغ هذا الشكر إلى جيارردو بك

ولم تعد سراى عابدين صالحة لسكنى الخديو هذا العام فأعدت سراى حلوان ليقضى سموه فصل الشتاء بها وظهر بعد ذلك من تقدير خسائر الحريق أنها تبلغ نحو ثلاثين ألفاً من الجنيهات

مهمة من قبل البرنس عباس . فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٩١ وصلتنى رسالة من ولى العهد بعد رجوعه من مصر إلى دراسته فى فينا يقول لى فيها انه مضت مدة كبيرة لم تصلنى منك رسالة وأرجوك أن تبحث فى نظارة الأشغال عن خرائط لمنطقتى طوخ وادفينا وعما إذا كانت هناك خرائط جديدة للقاهرة والاسكندرية والمدن الهامة وختم خطابه بما يشعرنى بالاحترام

فذهبت إلى رافون بك مدير قلم الرسم بنظارة الاشغال وفهمت منه أن إعداد الخرائط المطلوبة لايمكن قبل مضى شهرين لأنه سيكاف أحد المهندسين برسمها وأنه يمكن فى أثناء هذه المده أن يستعين البرنس بخريطة الوجه البحرى من عمل محمود باشا الفلكى .

أما خرائط المدن الهامة فان جران بك مدير المبانى بنظارة الأشغال وعدنى باعدادها وإرسالها إلى البرنس عند تمامها بعد أن يضيف إليها خريطتى القاهرة والاسكندرية القديمتين لأنهما لم يجددا بعد . وقد شرحت للبرنس فى ردى هذه المعلومات .

ولما أعدت الخرائط فى شهر ديسمبر بعثت بها إلى سموه .

وفاة المغفور له توفيق باشا

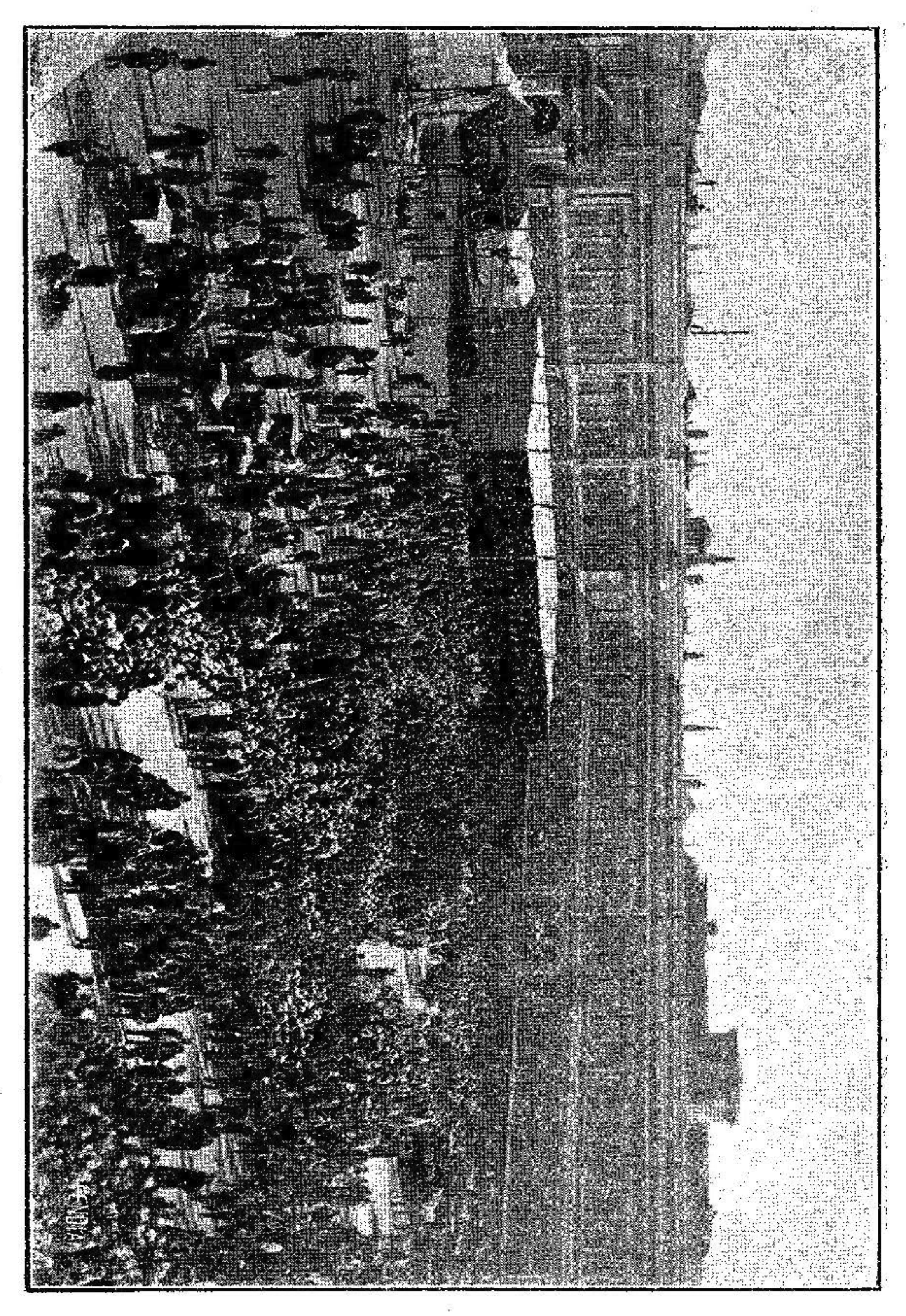
مرض توفيق باشا مرضاً لم يمهله إلا أسبوعا، ابتدأ ببرد ثم تحول الى نزلة وافدة حادة. وتولى علاجه الدكتور عيسى باشا حمدى طبيبه الخاص والدكتور سالم باشا وبذلا لانقاذه كل ممكن، ولكن ذلك لم يرد عنه سهم القضاء فاشتدت عليه وطأة المرض فى ظهر يوم ٧ يناير سنة ١٨٩٢ اشتدادا ينذر بالخطر وهرع إلى سراى حلوان قنصلا فرنسا وروسيا. وفى الساعة الرابعة حضر النظار والسير بارنج (لورد كرومر) وفى الساعة الخامسة فاضت روحه إلى بارئها. فالتأم مجلس النظار فى الحال بحلوان وحضر الاجتماع السير بارنج. ولم يتقرر فى ذلك الاجتماع إخبار الاستانة رسمياً بالنبأ المشئوم ولكن أرسلت البرقيات الى السلطان من جهات أخرى غير رسمية حتى يمكن اتخاذ التدابير اللازمة

وعاد مجلس النظار إلى الاجتماع فى صباح يوم ٨ يناير بعابدين وحضر الاجتماع جرانفيل باشا السردار وكتشنر باشا مدير الضبط والربط فتقرر أن يكون تشييع الجنازة بالملابس الرسمية وأن تحمل جثة الفقيد من حلوان إلى عابدين عند الظهر. وأن يبدأ مشهد الموكب فى الساعة الثانية. وبعثت الحكومة بالخبر رسمياً إلى الباب العالى وأبلغ سعادة تيجران باشا ناظر الخارجية إلى القناصل وقوع المصاب وأطلقت مائة مدفع من القلعة إعلانا للحداد العام.

ولبست البلاد كلها ثوب الحداد وحزن الشعب كل الحزن على فقد أمير كان يحبه.

وفى نحو الساعة الأولى بعد الظهر وصل إلى محطة باب اللوق القطار الذى يقل النعش وكان يرافق الجثة البرنس حسين كامل وبعض رجال التشريفات وغيرهم. ثم حمل النعش بواسطة ضباط الحرس وسار أمامه البرنس حسين ومختار باشا الغازى المندوب السامى العثمانى والنظار ورجال المعية وغيرهم حتى وصلوا إلى سراى عابدين.

فدخلوا بالنعش من باب التشريفات الصغير ثم خرجوا به من الباب الكبير وسار الموكب يضم النظار وممثلى الدول والعلماء والأمراء والرؤساء الروحانيين وكثيرا من وفود الأقاليم والجموع الكثيرة من الشعب. وأذكر أنه كان من الهيئات المشيعة جماعة الماسونيين لان المتوفى كان ماسونياً، فاجتازت الجنازة شارع عبدالعزيز فالموسكى



تشييع جنازة المرحوم توفيق باشا

حيث صلى على الفقيد فى المشهد الحسينى . ثم وورى فى مقبرة العفيفى بين مظاهر الحزن العميق من جميع الطبقات .

وفى يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٢ قدم الدكتوران هيس وكومانوس اللذان دعيا فى آخر لحظة للكشف على الفقيد تقريراً إلى مصطفى باشا فهمى خلاصته :

انهما قصدا حلوان فى يوم ٧ منه لعيادة الخديو وسألا الدكتور سالم باشا عن الحالة فأجابهما بأن الخديو مصاب بالنزلة الوافدة منذ ثمانية أيام وأن الحمى لم تشتد وطأتها إلا فى يوم ٦ يناير وأن سموه كان يعانى الأرق وضيق التنفس وآلاما فى الجنب الأيسر وأنه أعطيت له حقنة من المورفين .

ولما دخلا بعد هذا التعريف وجدا الخديو فى حالة مقلقة يبدو عليه التعب والشحوب وضيق التنفس . وكانت الحرارة بلغت ٤٠ درجة فلاحظا رشحاً شُعَبيًّا فى الرئة اليسرى ولكن لم يكن هذا يبرر الاعراض المخية التى شاهداها لأن الخديو لم يكن يبصر ما حوله ولذلك سألا عن حالة البول فأجيبا بأنه عادى وبعد التشخيص وصفا الدواء وعادا للقاهرة ثم رجعا ثانية بعد الظهر فوجدا الحالة أشد ووصلت الاعراض المخية إلى درجة خطرة فعرفا أن هناك تسمما فى البول سيما وأنهما عند دخولهما عرفتهما إحدى السيدات أنه لم يبل من يومين فألحا فى طلب معاينة البول فأدخلا مبضعاً وتحصلا على كمية صغيرة من البول قاتمة اللون فحللاها وعندها اتضح وجود كمية عظيمة من الزلال وعرفا طبيعة الداء وهو أن الجناب العالى بعد إصابته بالنزلة الوافدة أصيب بالتهاب رئوى مصحوب بالتهاب وريدى عفن أيضاً ، فلم يبق لهما أى أمل فى الشفاء ولكنهما عملا كل ما يمكن فلم يمنع ذلك سهم القضاء .

ومن المعلومات الخصوصية أن عيسى باشا حمدى كان هو الذى يعالج الفقيد أما سالم باشا فكان يعوده فقط ويأمر بالعلاج اللازم ولكن لم يكن يُعمل به ويعزى ذلك لثقة حرم الخديو بالأول .

تحليل شخصية توفيق

كان محباً لبلاده ، عاملا لتقدم الشعب وإسعاده ، يقاسمه السراء والضراء ؛ فهو أول من تنازل من أعضاء الأسرة الخديوية عن جفالك « أطيانه » لدفع الدين المطلوب من الحكومة

وكان مهتماً بنشر التعليم مذ كان ولياً للعهد حيث أوفد بعثة لتلقى العلم فى مدرسة المبتديان ، وأنشأ مدرسة القبة . فلما ولى الأمر أسس المدرسة العلية كل ذلك على نفقته الخاصة

وهو الذى جنح إلى تمصير قيادة الجيش تدريجياً ، فمنح الضباط الثلاثة المصريين (أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى) قيادة ثلاثة آلايات وكانت من قبل وقفاً على الأتراك والجراكسة

ولما أشار الانجليز على سموه بالالتجاء إلى إحدى المدرعات قبل البدء فى تدمير الطوابى أبى قائلا ان الواجب يقضى عليه أن لا يترك أمته وقت الخطر كما شاطرها وقت السلم

ولما علم بانتصار الانجليز فى التل الكبير عز عليه أن يتم توطيد عرشه على يد الأجانب وعلى حساب بلاده ومذلة شعبه ولذا تساقطت الدموع من عينيه

ومَنْ الذى لا يعجب بوطنيته الصادقة حينما يعلم أنه عند ما تفشت الكوليرا فى البلاد غامر سموه رحمه الله فزار مرضاها فى المستشفيات مواسياً ومعيناً رغم نصيحة الناصحين بعدم المخاطره بصحته الغالية

أما خلقه فقد كان الديموقراطية الدمثة إذ كان يجالس حاشيته فيتخذ منها بطانته وأصدقاءه لا فرق بين كبار الموظفين وصغارهم ، وكان يأذن لهم أن يرسلوا النفوس فى حضرته على سجيتها وأن يدخن منهم من يدخن حين يكونون فى وقت النزهة

وكان رحمه الله شغوفاً بالاطلاع على جلائل أمور الشعب ودقائقها حتى أنه فتح أبوابه يستقبل زائريه فيتحدث معهم فيما يهمهم من الشئون ، كما كان يتتبع ما تكتب الصحف بعناية ودقة

أما أداء الفرائض فكان يقوم به على تقوى الله ، يصوم ويصلى ويأمر بالصلاة والصوم ويعاتب على تركهما ويثيب على فعلهما . وهو أول من قام بأداء فريضة الجمعة فى المساجد

روى لى زميلى محمد طاهر بك المترجم الانجليزى القدير أن الخديو قال له : « أنت عامل انجليزى لا تصوم ولا تصلى فانى لم أشاهدك قط فى صلاة الجمعة فأنصحك أن تقوم بفرائض دينك يفتح الله عليك ، فلما رآه بعد ذلك فى صلاة الجمعة بالمسجد دعاه إلى السراى ورضخ له رضيخة من المال ثم ابتسم وقال له : « أرأيت كيف فتح الله عليك ! »

وتجنب رحمه الله الاسراف ، على أنه كان جواداً محسناً يعطى بيده لمن يتوسم فيه الحاجة . قال لى بعض ياورانه إنه كان يستدعى أثناء تنزهه على شاطىء البحر بعض صيادى الأسماك فاذا علم منهم أنهم لم يصطادوا شيئاً ينقد كل واحد منهم جنيهين

ليشتروا أقوات عائلاتهم فكانوا يدعون له قائلين: « ربنا يحنن عليك يا افندى ! » لأنهم لم يكونوا يعرفونه

وكان يرسل المعونة سراً إلى من يستحقها دون أن يعلم هؤلاء المستحقون مصدرها

وكان عفيفاً معتدلا فى شهواته لم يتزوج غير واحدة ولم يتخذ الخليلات والسرارى، وكان لا يميل إلى الغدر حتى بألد أعدائه (١)

وكان قنوعاً اكتفى بما حدد لنفسه من المخصصات ، وقد أراد الانجليز أن يبيعوه حديقة القبارى وما إليها من الأراضى الزراعية الشاسعة بمبلغ يسير من المال وأن يبيعوه كذلك قصر الجزيرة وملحقاته بعشرين ألفاً من الجنيهات مع أن مصاريف بنائها أربت على ٨٩٨،٠٠٠ جنيهاً مصرياً فأبى خشية أن يقال عنه إنه يستغل مركزه

هكذا كان خلق الفقيد

سـياسة توفيق

صدق اسماعيل فى قوله لتوفيق ساعة الوداع : — « كنت أود يا أعز البنين لو استطعت أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن تسبب لك ارتباكا على أنى واثق بحزمك وعزمك » حقاً أن اسماعيل ترك البلاد فى حالة سيئة ؛ فالمالية كانت على شرف الأفلاس ، والادارة مختلة والقضاء فوضى ، والفلاح فى فقر مدقع بعد أن ترك أرضه هرباً من زبانية اسماعيل صديق «المفتش» الذين كانوا يرهقونه بجمع الأموال التى لا حد لها

ولقد أرسل توفيق عند توليته لشريف باشا خطاباً قال فيه إن لديه واجبات يريد النهوض بها بأمانة مع علمه بمقدار صعوبتها بسبب ارتباك الحالة المالية ووقوف حركة التجارة وقوفاً لم يقع مثله فى مصر من قبل ، وأنه عازم على بذل الجهد لازالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح، وذلك بالاقتصاد فى نفقات الحكومة وإصلاح شئون الهيئة القضائية والادارية

ولقد فكر بادىء بدء فى إقصاء الأجانب عن التدخل فى شئون البلاد الداخلية ، فقال لمكاتب التيمس عقب توليته إنه لا يرغب فى إعادة النظار الأجانب وأنه معتزم

---

(١) راجع صفحة (١٤٣)

السير فى الاصلاح بأمانة وإخلاص . . . .

ولكن هذا لا يمنع من استخدام الأجانب كمرشدين لا مسيطرين . وبالفعل فانه لما رجعت المراقبة الثنائية اشترط الخديو توفيق أن تنحصر أعمال المراقبين فى البحث والتنقيب دون التدخل فى الأعمال الادارية والتنفيذية

ولم تكن سياسة توفيق دستورية بدليل استقالة نظارة شريف باشا بسبب آرائها الدستورية وعدم موافقة توفيق عليها ؛ لأنه كان يري أن ليس من السهل انتقال الشعب من حكومة فردية محضة إلى حكومة دستورية نيابية طفرة من غير تدرج . ولكن لما افتتح مجلس النواب فيما بعد قال إنه كان يفكر فى دعوة المجلس منذ تولى الحكم لو لا الظروف التى أحاطت بالبلاد، وفى الحقيقة أنه لم يكن راغباً فىهذا المجلس لأسباب ذكرت بصفحة (١٢٨)

ولم تكن سياسته استبدادية بدليل أنه لما خلف رياض باشا شريفاً أرسل له الخديو خطاباً قال فيه إن مبدأه أن يحكم البلاد مع النظار وبمجلس النظار، وبناء علىهذا المبدأ انضم للأغلبية من النظار فى محاكمة العرابيين

ولقد بر توفيق بوعوده إذ أجرى كثيراً من الاصلاحات الادارية ؛ ومن أهمها أنه أمر بتشكيل لجان للنظر فى ترقية التعليم ونشره، وإصلاح القضاء الأهلى، وحدد مواعيد دفع الضرائب ؛ فاستراح الفلاح وعرف كيف ينظم حياته المالية ، وبدأ يشعر أن أرضه أصبحت ملكا له فأقبل عليها يستغلها بعد أن كان يهرب منها أيام اسماعيل

كما أجرى كثيراً من الاصلاحات المالية ؛ منها أنه اكتفى بمبلغ مائة ألف جنيه مصرى لمخصصاته سنوياً ، وألغى مخصصات والدته وحرمه ، أما سلفه فكانت المالية تحت تصرفه

وقد صدر فى عهده قانون التصفية فنظمت به الديون ووجدت الثقة عند الدائنين ، وترتب على ذلك أن ارتفع سعر الموحد ارتفاعاً كبيراً بعد أن تدهور فى أواخر حكم اسماعيل إلى ستة وأربعين جنيهاً

وأن ميزانية الحكومة بعد أن كانت لا تفى بفوائد الديون قامت بدفعها ودفع نفقاتها فى سنة ١٨٨٠ وبقى لها مبلغ ٦٦٦٩٩٧ جنيهاً مصرياً بصفة احتياطى لأول مرة

ولقد زادت الصعوبات عند اشتداد الثورة العرابية فاستغل هذا الموقف اسماعيل وحليم والدولة العثمانية كما مر ذكره ، وزاد قلق توفيق عند ما أراد عرابي الايقاع به

ليقتله أو يعزله فالتجأ إلى انجلترا فى إخماد الثورة وساعدها على ذلك بعد ما فشلت مساعيه لدى السلطان بطلب إرسال جنود تركية ، وعند ما خابت آماله فى أن تنضم فرنسا إلى انجلترا فى إخماد هذه الثورة حتى إذا ما تم لها ذلك انسحبتا من مصر معاً

وعند ما طلبت انجلترا إخلاء السودان وأشيع أن الخديو عازم على الاستقالة حادثه مراسل التيمس فى هذين الموضوعين فقال له : « إننى لم أكن أفكر فى منصب الخديوية وإن أحسن أيامى أيام أن كنت بعيداً عن هذا المنصب، وأنى لم أقبله إلا قياماً بالواجب نحو أبى ووطنى مسترشداً بنصائح المراقبة الثنائية ونصائح انجلترا ، وأن أمامى واحدة من ثلاث خطط للحكم : إما إتباع هذه النصائح ظاهراً والعمل على محاربتها فى الخفاء ، أو إطاعتها إطاعة عمياء ، أو أناقش نصائحها بكل صراحة وأبدى آرائى فيها فاذا قبلت كان بها وإلا فأنا مضطر لقبولها . وقد اتبعت فى الحكم الطريقة الأخيرة فاعتبرت ضعيفاً فهل كان يمكننى أن أقاوم للنهاية ؟ » لهذا فانه أخذ بنصائحهم حتى فى مسألة إخلاء السودان خوفاً من شبح الثورة الآتية من الجنوب كما أفهموه .

وقد استمرت هـــــذه الصداقة حتى آخر أيام حياته فكان بذلك موضع ثقتهم واحترامهم ، فرحمة الله عليه
